وَمَنْ لَمْ تُعَلِّمْهُ لَكَ الذُّلَّ نَفْسُهُ
مِنَ النَّاسِ طُرًّا عَلَّمَتْهُ المَنَاصِلُ(١)

أنت صحيح لا عليل

لما وافى رسول ملك الروم رأى سيف الدولة يتشكى فقال: أتراه يفرح بعلتنا؟ فقال أبو الطيب:

[المتقارب]

فُدِيتَ بِمَاذا يُسَرُّ الرَّسُولُ؟
وَأَنْتَ الصَّحِيحُ بِذَا لَا العَلِيلُ(٢)
عَوَاقِبُ هَذَا تَسُوءُ العَدُوَّ
وَتَثْبُتُ فِيهِمْ وَهَذَا يَزُولُ(٣)

آلة العيش صحة وشباب

يرثي أخت سيف الدولة الصغرى ويسليه ببقاء الكبرى أنشده إياها يوم الأربعاء النصف من شهر رمضان سنة أربع وأربعين وثلاث مئة (٩٥٥م):

[الخفيف]

إِنْ يَكُنْ صَبْرُ ذِي الرَّزِيَّةِ فَضْلَا
تَكُنِ الْأَفْضَلَ الْأَعَزَّ الْأَجَلَّا(٤)

= غصباً وإكراهاً بالإرهاب والدسائس، وقد يصل الأمر إلى الخيانة.

(١) المناصل، الواحد منصل: السيوف. ينهي الشاعر قصيدته بما ينمّ عن وجهته القرمطيّة أن الطاعة إن لم تكن طواعية، لا بدّ أن تكون بالإكراه، فاستعمال السيف الطريقة المثلى برأي الشاعر، فسيوف سيف الدولة بإخضاع الناس لمشيئته.

(٢) يُخاطب الشاعر سيف الدولة ردًّا على سؤاله داعياً له بالسلامة، ومعلناً أن كلّ الناس يفدونه بأرواحهم إذا ألمّ به مكروه، وممّا يدلّ على سلامته أنه حصل له ما يحصل لسائر البشر في الأحوال العادية، فبذلك سيكون سليماً حتى في نظر الرسول، فلا يستغرب ما حصل للأمير.

(٣) عواقب، الواحدة عاقبة: النتائج السيّئة، فنتائج الدمّل الذي يُعاني منه الأمير ستكون سيّئة على العدوّ، ففي حال عاود الأمير غزوهم، فستكون النتيجة مدمّرة وسيّئة عليهم، وما ألمّ بالأمير فسيزول عندما يقتضي مدته من المرض.

(٤) الرزيئة والرزيّة: المصيبة والفاجعة. يخاطب الشاعر سيف الدولة مادحاً فيه الصبر =

أَنْــتَ يَــا فَــوْقَ أَنْ تُــعَــزَّى عَــنِ الْأَحْــ
ـبَــابِ فَــوْقَ الَّــذِي يُــعَــزِّيــكَ عَــقْــلَا[١]
وَبِــأَلْــفَــاظِــكَ ٱهْــتَــدَى فَــإِذَا عَــزَّ
اكَ قَــالَ الَّــذِي لَــهُ قُــلْــتَ قَــبْــلَا[٢]
قَــدْ بَــلَــوْتَ ٱلْــخُــطُــوبَ مُــرًّا وَحُــلْــواً
وَسَــلَــكْــتَ الْأَيَّــامَ حَــزْنــاً وَسَــهْــلَا[٣]
وَقَــتَــلْــتَ الــزَّمَــانَ عِــلْــمــاً فَــمَــا يُــعْــ
ـرِبُ قَــــوْلاً وَلَا يُــــجَــــدِّدُ فِــــعْــــلَا[٤]

= على بلواه؛ فمن طبيعة أهل الصبر أن يلتزموا به عند المصائب فمن يُمدح بذلك يُعدّ من الأفاضل، وبما أن فقد الأمير أخته، وهي بفضلها وبمكانتها الرفيعة، فصبره على ما ألمّ بها يجعله أفضل الخلق لاحتماله وتقبّله ما كان.

(١) يستثير الشاعر بسيف الدولة التفوّق والشعور بأهميّته بالنسبة لمن يُعزّيه، فالحق أن للأحباب مكانة عظيمة في القلوب، ولعقول المعزّين أهميّة في تفهّم سرّ الحياة، وثَمَّة من يُعزّي فيُعمل النصيحة لصاحب العزاء، والأمير أفضل الناس عقلاً، ومن السهل عليه أن يلج أبواب العزاء لمشاهدته لأحوال البشر ومآلهم المحتّم، فتهون عليه مصيبته فيُسرّي عن نفسه.

(٢) لا عجب أن المعزّي قد ردّ للأمير ما قدّمه من جميل العبارة في موقف كهذا إذ استعان بألفاظه الأنيقة المدبّجة بأبدع لفظ وأجمل التعابير التي تُزيل الهموم عن القلوب وتُثير في النفوس أرقّ المشاعر في جوّ الحزن الكئيب وتبعث على القبول بقضاء رب العالمين في البشر.

(٣) بلوت: جرّبت واختبرت. الخطوب، الواحد خطب: المصائب ونوائب الدهر. الحزن: ما غلُظ من الأرض. يتابع الشاعر مخاطباً الأمير، لقد عرك الحياة وعرف طبيعتها، إنها لا تخلو من مكدرات كما لا تخلو من مسرّات؛ تلك هي الحياة فيوم لك ويوم عليك كطبيعة الأرض التي مشى عليها منها ما هو غليظ تعتوره منحدرات خطرة وجبال وعرة، ومنها سهل تسرح فيه العيون والنفوس براحة وجدّ.

(٤) يُغرب: يأتي بما هو غريب. يُردف الشاعر أن الأمير قد خبر الزمان فتعلّم منه الشيء الكثير وأحاط به علماً، لذا فلم يكن الأمر جديداً، بل إنه متوقع لسائر البشر، ولا يُستغرب أن يفتك الموت بأعزّ الناس عليه، فالأمر يتكرّر كلّ يوم، ومن هنا قيمة العزاء والسلوان بالنسبة لسائر الناس.

أجِـدُ الْـحُـزْنَ فِـيـكَ حِـفْـظـاً وَعَـقْـلاً
وَأَرَاهُ فِـي الْـخَـلْـقِ ذُعْـراً وَجَـهْـلاً[١]
لَـكَ إِلْـفٌ يَـجُـرُّهُ وَإِذَا مَـا
كَـرُمَ ٱلْأَصْـلُ كَـانَ لِـلْإِلْـفِ أَصْـلَا[٢]
وَوَفَـاءٌ نَـبَـتَّ فِـيـهِ وَلٰـكِـنْ
لَـمْ يَـزَلْ لِـلْـوَفَـاءِ أَهْـلُـكَ أَهْـلَا[٣]
إِنَّ خَـيْـرَ الـدُّمُـوعِ عَـوْنـاً لَـدَمْـعٌ
بَـعَـثَـتْـهُ رِعَـايَـةٌ فَـٱسْـتَـهَـلَّا[٤]

(١) وردت الأبيات العشرة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٥. الحزن حزن، ولكن الشاعر يجد في سيف الدولة فهم العاقل لناموس الموت، فالموت حقّ ولا مفرّ منه، فكلّ البشر إلى زوال، ولكن من أعمل عقله تأكد أنه على الدرب سائر، وأنه سوف يترك أحباباً تماماً لما تركه غيره حزيناً عرفاناً بجميل وأنساً بودّ وصداقة. أما الجهلة فإنهم يُعولون ويجزعون خوفاً من الموت لجهلهم بحقيقة الوجود وشكّهم بعدالة اللّه سبحانه وتعالى وبقضائه في الناس جميعاً.

(٢) الإلف، المعايشة والصحبة. يُردف الشاعر منوّهاً بمؤالفة الأمير من فقد؛ إنها صحبة عمر طويل، ورباط دم وأرض وآباء، لذا فلا عجب أن يكون كرم الأصل يحكم تلك العلائق بين البشر، فكيف إذا كان الأمر يتعلّق بالأخوة؟ فهنا تتكشف حقائق الوجود الإنساني النبيلة.

(٣) يُتابع الشاعر ذاكراً ظاهرة إنسانية، إذا فقدت من قلوب البشر فلا خير فيهم، إنه الوفاء؛ ذلك الرابط الإنساني العظيم الذي يربط الإنسان بأخيه الإنسان، ويربط الإنسان بالأرض والوطن، فالأمير رضع من خير الأرض وماءها وسلك درب الحياة بين عشيرته التي منها استقى مُثل الحياة الرفيعة، فلا عجب أن تكون ملكة الوفاء زاده، ولهذا بكى وحزن، فهذا من حقّه أملاه عليه الوفاء.

(٤) الرعاية: حفظ العهود والمواثيق. الاستهلال: الشروع بالانسكاب. يروى «عندي» بدلاً من «عوناً». يُبارك الشاعر من الأمير أن يشرع بالبكاء، ففي البكاء غسل للأحزان فضلاً عن شفافية ورقّة النفوس التي تعرّي القلوب التي تبدو للوهلة الأولى قاسية شأن سيف الدولة المقاتل الشرس الذي لا يعرف قلبه للرحمة مكاناً في مقاتلة أعدائه.

أيْـنَ ذِي الـرِّقّـةُ الـتِّـي لَـكَ فِـي ٱلْـحَـرْ
بِ إذَا ٱسْـتُـكْـرِهَ ٱلْـحَـدِيـدُ وَصَـلَّا[١]
أَيْـنَ خَـلَّـفْـتَـهَـا غَـدَاةَ لَـقِـيـتَ الـ
ـرُّومَ وَالْـهَـامُ بـالـصَّـوَارِمِ تُـفْـلَـى[٢]
قَـاسَـمَـتْـكَ الـمَـنُـونُ شَـخْـصَـيْـنِ جَـوْراً
جَـعَـلَ الْـقِـسْـمُ نَـفْـسَـهُ فِـيـكَ عَـدْلا[٣]
فَـإِذَا قِـسْـتَ مَـا أَخَـذْنَ بِـمَـا أَغْـ
ـدَرْنَ سَـرَّى عَـنِ الْـفُـؤَادِ وَسَـلَّـى[٤]
وَتَـيَـقَّـنْـتَ أَنَّ حَـظَّـكَ أَوْفَـى
وَتَـبَـيَّـنْـتَ أنَّ جَـدَّك أَعْـلَـى[٥]

(١) يسأل الشاعر سيف الدولة عن تلك الرقّة التي أظهرها بلا وعي منه كاشفاً عن صدق عنصره وأصالة طبعة. إنها تختفي إذا كانت الحرب التي يُجبر عليها والتقت السيوف بالسيوف والرماح بالرماح وغنّت أغنية الموت هناك في الميدان تنعدم الرقّة، فالموت يختطف القلوب الرقيقة، فلا بدّ من أن تكون قاسية كقساوة السلاح المستعمل فيها.

(٢) يروى «غادرتها» بدلاً من «خلّفتها» وهما بمعنًى واحد. الهام، الواحد هامة: الرؤوس. الصوارم، الواحد صارم: السيوف البتّارة. تفلى: تفصل. يُحاول الشاعر أن يخرج سيف الدولة من الجوّ الحزين بتذكيره بما كان يفعله بأعدائه الروم، سائلاً عمَّا يبدو ازدواجيّة في حياة الأمير؛ عن الرقّة التي ضاعت معالمها غداة لقي الأمير الروم فأنزل بهم الخسف والهوان، فإذا بسيوف جنده تعمل فيهم ذبحاً وتقتيلاً، وهو يصول ويجول بسيفه فيُفرّق صفوفهم ويطير جماجمهم عن أجسادهم.

(٣) و (٤) المنون: الموت. جوراً: ظلماً. يرى الشاعر أن الموت عندما يسلب النفوس أرواحها يُقاسم البشر، فيكون ذلك ظلماً لا ظلم بعده، وهو في تلك القسمة كان عادلاً إذ ترك الأمير وأبقى على أخته الكبرى مستأثراً لنفسه بالصغرى، وفي ذلك خير عوض إذ أبقاه سالماً معافًى، فقدره لا بدّ أن يُتمّه بأمر اللّه سبحانه وتعالى، وهنا لا بدّ للأمير من إجراء عملية حسابية حتى يتبيّن له وجه الخسارة والربح إذا كان هناك من ربح، وباب التعزّي أن الموت ترك للأمير أحبّ أختيه إليه، ممّا يحمله على التأسي والقبول بقضاء اللّه عزّ وجلّ.

(٥) تيقّنت: تأكّدت. أوفى: أكمل. جَدّك، بفتح الجيم: حظّك. يُردف الشاعر أن الأمير =

وَلَعَمْرِي لَقَدْ شَغَلْتَ المَنَايَا
بِالْأَعَادِي فَكَيْفَ يَطْلُبْنَ شُغْلَا[١]
وَكَمِ انْتَشْتَ بِالسُّيُوفِ مِنَ الدَّهْـ
ـرِ أَسِيراً وَبِالنَّوَالِ مُقِلّا[٢]
عَدَّهَا نُصْرَةً عَلَيْهِ فَلَمَّا
صَالَ خَتْلاً رَآهُ أَدْرَكَ تَبْلَا[٣]
كَذَبَتْهُ ظُنُونُهُ أَنْتَ تُبْلِيـ
ـهِ وَتَبْقَى فِي نِعْمَةٍ لَيْسَ تَبْلَى[٤]
وَلَقَدْ رَامَكَ الْعُدَاةُ كَمَا رَا
مَ فَلَمْ يَجْرَحُوا لِشَخْصِكَ ظِلّا[٥]

= قد تأكّد له في حال بقيت أخته الكبرى أن حظّه منها أكمل وتبيّن له أن ذلك من حسن التوفيق.

(١) المنايا، الواحدة منيَّة: الموت. يُقسم الشاعر مستغرباً بمسار الأحداث والمقادير مع الأمير، ولطالما شغل عالم الموت بقضائه على أعدائه في ميادين القتال، ومع ذلك فقد كان الموت بالمرصاد لأخته، وقد شغل نفسه بالاستئثار بأخت الأمير.

(٢) ورد البيتان التاليان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٦. انتشت: انتشلت واستنفذت. النوال: العطاء. مقلاً: معدماً. يُخاطب الشاعر الأمير منوّهاً بأعمال الخير التي يقوم بها لاستنهاض المعذبين في الأرض من كبواتهم، فثمّة من أسره الدهر، فانقطع عنه مدد المساعدة وتخلّى عنه الصديق، فإذا بالأمير يُنقذه من سوء المصير، وكم من فقير معدم فأعانه بماله وأزاح عنه شبح الفقر والعوز.

(٣) صال: جال. الختل: الخداع والغدر. التبل: الثأر. يُردف الشاعر أن ما قام به سيف الدولة من نصرة الضعفاء وإعانتهم جعل الدهر ينقم عليه عمله، فكان عليه أن يردّ الصاع صاعين للأمير فلجأ إلى الغدر والخداع وصال صولة منتصر، فإذا به يخرم أخته من عقد عائلته ويحرمه منها ويثأر لنفسه.

(٤) ومن مغالاة الشاعر أن الدهر أخطأ التقدير وخاب ظنّه بأنه ثأر لنفسه بإماتة أخت الأمير ويخاطب الشاعر ممدوحه بأنه هو من يُبلي الدهر ويُميته بكيده فيطول عمره وإدامة سعده بحيث لا تُؤثر فيه غدرات الزمان ومصائبه.

(٥) رام: قصد. يُخاطب الشاعر ممدوحه أن حربه مع الزمان تاريخ حافل بالمؤامرات =

وَلَـقَـدْ رُمْـتَ بِـالـسَّـعَـادَةِ بَـعْـضـاً
مِـنْ نُـفُـوسِ الْـعِـدَى فَـأَدْرَكْـتَ كُـلّا[١]
قَـارَعَـتْ رُمْـحَـكَ الـرِّمَـاحُ وَلٰـكِـنْ
تَـرَكَ الـرامِـحِـيـنَ رُمْـحُـكَ عُـزْلَا[٢]
لَـوْ يَـكُـونُ الـذِي وَرَدْتَ مِـنَ الْـفَـجْـ
ـعَـةِ طَـعْـنـاً أَوْرَدْتَـهُ الْـخَـيْـلَ قُـبْـلَا[٣]
وَلَـكَـشَـفْـتَ ذَا ٱلْـحَـنِـيـنَ بِـضَـرْبٍ
طَـالَـمـا كَـشَّـفَ الْـكُـرُوبَ وَجَـلَّـى[٤]

= عليه، فالأعداء حاولوا فلّه والقضاء عليه فخابوا وذلّوا فلم ينالوا منه سانحة يُؤذونه بها، والدهر بدوره كان حرباً عواناً عليه فلم يقدر عليه، لأن الأمير يقضي عمره بقضاء اللّه تعالى وقدره فهو نعم المعين له وحاميه من غدرات الزمان.

(١) رمت: طلبت. يُخاطب الشاعر ممدوحه بأن سعده يُحالفه التوفيق دائماً، فما من عدوّ دخل معه في معركة العداء إلّا وانتصر عليه بفضل حظّه وحسن التوفيق الإلهيّ له، الذي لم يتخلّ عنه في قضائه على سائر أعدائه.

(٢) قارع: قاتل وغالب. الرامحين: المقاتلين بالرماح. عُزلاً: من لا سلاح معهم. يُخاطب الشاعر ممدوحه منوّهاً بقوّته وشجاعته، فقد صارعه صراع الأبطال لأعدائهم فرمحه كان دائماً النصر حليفه، فإذا بصاحبه يقتل أعداءه، وكأنهم عزّل لا رماح معهم، وكأنهم يستسلمون لرمحه لهزيمتهم النفسية لرعبهم منه ولحسن حظّه.

(٣) وردت: استقبلت. الفَجعة: فقد أحد الأعزّاء من الأقرباء. قبلاً: مواجهة. محال أن يُقاتل الإنسان ما هو مجرّد عن الشكل والصورة، وتلك مشكلة الأمير، فلو كان الموت شخصاً لاستقبله الأمير بسلاحه وأورد خيله ليطعنه طعنة نجلاء تُودي به إلى الهلكة، ولكن الأمر لا يتعلّق بالمكان فضلاً عن الصورة والشكل، فالموت لا يخضع لحيّز المكان كذلك.

(٤) الحنين: الشوق. الكروب، الواحد كرب: الأحزان. جلّى: أزال وكشف. يحاول الشاعر أن يُخفّف من غلواء حزن الأمير لأخته، فالحنين حقّ من حقوق المودّة والقرابة، فلو كان القتال دفعاً لذلك الكرب لكان دواؤه عند الأمير فجهّز له جيشاً للقضاء عليه، ولكن الموت لا يُستدفع بتلك الوسائل ويمتنع عنه المرء بوسيلة.

خِـطْـبَـةٌ لِـلْـحِـمَـام لَـيْـسَ لَـهَـا رَدٌّ
وَإِنْ كَـانَـتِ الـمُـسَـمَّـاةَ ثُـكْـلَا[١]
وَإِذَا لَـمْ تَـجِـدْ مِـنَ الـنَّـاسِ كُـفْـأً
ذَاتُ خِـدْرٍ أَرَادَتِ الـمَـوْتَ بَـعْـلاً[٢]
وَلَـذِيـذُ الْـحَـيَـاةِ أَنْـفَـسُ فِـي الـنَّـفْـ
ـسِ وَأَشْـهَـى مِـنْ أَنْ يُـمَـلَّ وَأَحْـلَـى[٣]
وَإِذَا الـشَّـيْـخُ قَـالَ أُفٍّ فَـمَـا مَـ
ـلَّ حَـيَـاةً وَإِنَّـمَـا الـضَّـعْـفَ مَـلَّا[٤]
آلَـةُ الْـعَـيْـشِ صِـحَّـةٌ وَشَـبَـابٌ
فَـإِذَا وَلَّـيَـا عَـنِ الـمَـرْءِ وَلَّـى[٥]

(١) الخطبة: طلب المرأة للزواج. الحِمام، بكسر الحاء: الموت. الثكل: فقد أحد الأقرباء الأعزّاء. إنها خطبة ليست كسائر الخطبات يمكن للمرء العودة عنها باختلاق الأعذار، ولكنها خطبة من لا تُردّ نيّته، فالموت هو الخاطب والحزن للأقارب والأحباب، والدموع لأعزّهم، فلا تردّ ودائعه.

(٢) وردت الأبيات الخمسة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٦. الكفؤ: المثيل. البعل: الزوج. يُعلّل الشاعر أن ما حصل لأخت الأمير كان صوناً لها، لأنها لن تجد كفؤاً لها في عالم الرجال لجلال قدرها وشرفها، فكان الموت خير كفوء، فهي بكر ولن تستهين بشرفها، فالموت خير لها وراحة وصيانة.

(٣) يرى الشاعر أن البشر يُحبّون الحياة ويُقبلون عليها بشغف وحبّ. ليتمتّعوا بما فيها من سرور وفرح فيعبّون منها كلّ قدر استطاعته، فمن كانت بمستوى أخت الأمير قدراً وجلالاً، قد لا يتوفّر لها الكفؤ فيسومها العذاب ألواناً، ففي هذه الحالة فإن الموت أستر لها وصون لشرفها.

(٤) أف: اسم فعل مضارع بمعنى أتضجّر. ومن طبيعة الحياة إذا سقت المرء حلواً تمنّى استمرارها على منوالها هذا، وما يُعكّر صفوها أن طولها قد يُشعر المرء بالضعف والفتور فيتأفّف، وهو إنما يظهر سأمه من الحالة التي هو فيها وليس من الحياة ونعيمها.

(٥) تلك هي الحياة الحلوة؛ شباب وصحّة وأمل وقوّة وتوفيق حظّ فإذا زالت أسباب الاستمرار في الحياة، فالموت خير للمرء من حياة تعيسة يُعكر صفوها مرض لا شِفاء منه وأهل يتمنّون موته أكثر منه.

أَبَـداً تَـسْـتَـرِدُّ مَـا تَـهَـبُ الـدُّنْـيـا فَـيَـا لَـيْـتَ جُـودَهَـا كَـانَ بُـخْـلَا[١]
فَـكَـفَـتْ كَـوْنَ فَـرْحَـةٍ تُـورِثُ الْـغَـمَّ وَخِـلٍّ يُـغَـادِرُ الْـوَجْـدَ خِـلّا[٢]
وَهْـيَ مَـعْـشُـوقَـةٌ عَـلَـى الْـغَـدْرِ لَا تَـحْـفَـظُ عَـهْـداً وَلَا تُـتَـمِّـمُ وَصْـلاً[٣]
كُـلُّ دَمْـعٍ يَـسِـيـلُ مِـنْـهَـا عَـلَـيْـهَـا وَبِـفَـكٍّ الْـيَـدَيْـنِ عَـنْـهَـا تُـخَـلَّـى[٤]
شِـيَـمُ الْـغَـانِـيَـاتِ فِـيـهَـا فَـلَا أَدْ رِي لِـذَا أَنَّـثَ ٱسْـمَـهَـا الـنَّـاسُ أَمْ لَا[٥]

(١) إنها الحياة عجيبة غريبة، تُعطي بيد، فتكون ولادات وأفراح وزغاريد، ثم تأخذ باليد الأخرى فتترك قلوباً لوّعها الحزن وأبكاها ألم الفراق، ليتها بخلت بما أعطت أصلاً. والردّ الطبيعي على تلك الإشكالية أن اللَّه سبحانه وتعالى لحكمة هو يعلمها أوجدهم وأماتهم أيضاً لحكمة هو يعلمها.

(٢) كفى: أغنى. الوجد: شدّة الحزن. الخل: الصاحب والصديق. إنها صورة تشاؤمية من قلب عصره الألم. ليس للتمنّي في ردّ قضاء اللَّه تعالى سبيل، فبخل الحياة عن دفق الحياة في البشر، لا يتوقّف عليهم، صحيح أن ذلك يفرح القلوب في حال الميلاد، فيتآلف البشر ويتحابّون ثم يكون الموت فيتألّمون ويحزنون، فيفقد الصاحب صاحبه والخليل خليله، فالدنيا كتاجر يبتاع ويشتري، فيفرح الشاري بمتاعه ويسرّ له، فإذا استرده التاجر سلعته آلم المشتري فقدها.

(٣) وردت الأبيات الستة المتوالية في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٦. يتحدّث الشاعر عن الدنيا، إنها معشوقة حلوة تُزيّن لعاشقيها جمالاً زائفاً خدّاعاً غادراً، فيغترّون بها ويُسارعون إلى اغتنامها، وفجأة وبلا سابق إنذار يختطفهم الموت من بين براثن الحياة، فكأن المرء ما عاش وقد خانته الحياة وقطعت صلتها به.

(٤) يتابع الشاعر تأملاته، فالمرء يبكي بمرارة على الدنيا وفوت ما أمل منها، ومع ذلك فإنه لا يتخلّى عن أمله وحبّه لها طوعاً، فإذا بالموت يجبره، رغماً عنه، على التخلّي عنها إذا نزل الموت بساحته.

(٥) شيم: خصائص وأخلاق وصفات. الغانيات، الواحدة غانية: التي اغتنت بجمالها =

يَـا مَـلِـيـكَ الْـوَرى الْـمُـفَـرِّقَ مَـحْـيـاً
ومَـمَـاتـاً فِـيـهِـمِ وَعِـزًّا وَذُلَّا(١)
قَـلَّـدَ ٱللَّـهُ دَوْلَـةً سَـيْـفُـهَـا أَنْـ
ـتَ حُـسَـاماً بِـالْـمَـكْـرُمَـاتِ مُـحَـلَّـى(٢)
فَـبِـهِ أَغْـنَـتِ الْـمَـوَالِـيَ بَـذْلاً
وَبِـهِ أَفْـنَـتِ ٱلْأَعَـادِيَ قَـتْـلَا(٣)
وَإِذَا ٱهْـتَـزَّ لِـلـنَّـدَى كَـانَ بَـحْـراً
وَإِذَا ٱهْـتَـزَّ لِـلـرَّدَى كَـانَ نَـصْـلا(٤)
وَإِذَا الْأَرْضُ أَظْـلَـمَـتْ كَـانَ شَـمْـسـاً
وَإِذَا الْأَرْضُ أَمْـحَـلَـتْ كَـانَ وَبْـلَا(٥)

= عن تصنّع الجمال. يرى الشاعر أن الدنيا كغانية لعوب تستهوي القلوب وتحيّر العقول فتشدّ إليها أعتى الرجال وأقواهم، وفجأة تتخلّى عنهم فتتركهم يتعذّبون بها ومن أجلها، وبدافع السخرية كيف منح الرجال الدنيا اسماً أنثوياً؟

(١) الورى: البشر، الخلق. المحيا: الحياة. يُخاطب الشاعر الأمير على أنه ملك الخلق، فبيده حياتهم بما يُنعم به على أوليائه ورعيته، وموتهم بما يُنزله بأعدائه، فيُعدمهم الحياة، وهو من يرفع أقواماً ويُذلّ آخرين.

(٢) الحسام: السيف البتّار. يُخاطب الشاعر سيف الدولة أن اللّه سبحانه وتعالى قد جعله ملكاً على دولة، فكان سيفها ليحميها من الأعداء ويصونها من الطامعين، فضلاً عن أنه زيّنه بكريم الصفات وميّزه عن سواه بمكارم الأخلاق الرفيعة.

(٣) يُتابع الشاعر وصفه ذلك السيف، فبه نعمت الرعية بالرفاهية والغنى، وقد بذل لها الغنى، وبالمقابل فقد أذاق الأعداء مرّ الهزيمة وكان خير حام للدولة يُفني أعاديها ويحمي بيضتها ويُعلي رايتها.

(٤) اهتزّ: ارتاح. الندى: الكرم. الوغى: الحرب. النصل: السيف. يمدح الشاعر سيف الدولة بالجود، بأنه بحر يموج بالخير العميم، ففي شطآنه الغنى والجود والكرم، وإذا حزب الأمة أمر جلل اهتزّ غضباً فكان ناراً وسيفاً يقطع دابر الفتن وينزل بالأعداء صواعق الموت.

(٥) المحل: القحط والجدب. الوبل: المطر الغزير. فالأمير رحمة لأمته، فإذا حلّ =

وَهُـوَ الـضَّـارِبُ الـكَـتِـيـبَـةَ وَالـطَّـعْـنَـةُ تَـغْـلُـو وَالـضَّـرْبُ أَغْـلَـى وَأَغْـلَـى[١]

أَيُّـهَـا الْـبَـاهِـرُ الْـعُـقُـولَ فَـمَـا تُـدْرَكُ وَصْـفـاً أَتْـعَـبْـتَ فِـكْـرِي فَـمَـهْـلَا[٢]

مَـنْ تَـعَـاطَـى تَـشَـبُّـهَـاً بِـكَ أَعْـيَـا هُ وَمَـنْ دَلَّ فِـي طَـرِيـقِـكَ ضَـلَّا[٣]

فَـإِذَا مَـا ٱشْـتَـهـى خُـلُـودَكَ دَاعٍ قَـالَ لَا زُلْـتَ أَوْ تَـرَى لَـكَ مِـثْـلَا[٤]

= بالأمة ما يجعل الشمس مظلمة كان بمثابتها، ضياءً ودفئاً وحياة، وإذا ضرب البلاد جفاف ومحل كان إلى جانب الأمة فيض كرم وجود عطاء، فأغرق الناس بإحسانه.

(١) ورد البيت في: دلائل الإعجاز، للجرجاني: ١٥٠. الكتيبة: الفرقة من الجيش. تغلو: أي يندر وجودها. يذكر الشاعر قدرة الأمير وشجاعته، فيوم يعزّ على الأبطال في شدّة زحام المتقاتلين النزال، ويفرّ الشجعان مخافة الأسر أو الموت، سيف واحد يتحدّى الموت يجول ويصول في حمأة المعركة، إنه أغلى سيف في أغلى انتصار يُحقّقه.

(٢) وردت الأبيات الثلاثة الأخيرة في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٤٦. الباهر: المدهش. يُخاطب الشاعر ممدوحه بأنه قد أدهش العقول وحيّر الألباب بصفاته العظيمة المحبّبة إلى النفوس، والباحث في كنه سرّ تلك الفضائل يعجز أن يحيط بها لكثرتها، فضلاً عن نوعيّتها المميّزة، لذا فإنه يطلب منه أن يتمهّل في عرضها أمامه، إنه لا يستطيع حصرها وعدّها.

(٣) التعاطي: التناول والممارسة. أعيا: أتعب. يُعقّب الشاعر مبيّناً سبب دهشة أن من حاول الاقتداء بالممدوح فتشبّه به قصّر به المدى لبعد المسافة بينه وبين الممدوح، وكذلك فمن حاول سلوك الطريق التي أوصلته إلى أعلى مكانة، أنهكه المسير وضلّ في متاهات طرق شتّى لا يطرقها إلّا الأقوياء المجرّبون، وانهارت قواه فاستسلم للقنوط.

(٤) وثمّة من يرغب للممدوح الخلود، فيدعو له بالديمومة وطول البقاء حتى يرى له شبيهاً وبديلاً، فلم يكن ذلك كذلك لصعوبة أن يُوجد له شبيه.